ان يقرنه العمل بالعمل . يشير الخطيب الى حضرتي مصطفى افندي وشافعي افندي راغبي) فالتحقا بخدمة بنكين في باريس . هؤلاء ايضاً يستحقون كل تشجيع لانهم خبروا حال بلادهم فصممت عزيمتهم على خدمتها بسد جانب من هذه الحاجة

وختاماً احيي حضراتكم على هذه الفرصة السعيدة التي جمعتنا ساعة لذيذة من الزمان في هذا المكان . واشكركم خاصة على صبركم الجميل لسماع حديثي الطويل وعذري فيه ان الحديث من القلب الى القلب شجون وسلام عليكم حين تقبلون وحين تسافرون وحين تعودون الى وطنكم ووطنكم سالمين آمنين

ولتحي مصر ولتحي جلالة مليكها المعظم فؤاد الاول ولتحي ولي عهده العارق ولتحي فرنسا

جنائن المكسيك

عمران زاهر ابادهُ الفاتحون

قرأنا كتاب برسكوت الذي وصف فيه اجتياح كورتس القائد الاسباني لبلاد المكسيك وتخريبها فاستأصل عمراناً ارقى من عمران اسبانيا . وقد تمكن كورتس ورجالهُ من ذلك لانهم كانوا مسلحين بالاسلحة النارية من البنادق والمدافع وسكان المكسيك عزل منها . قرأنا ذلك الكتاب منذ سنين كثيرة ولا يزال ما فيه من الصور الوصفية ماثلاً يتردد امام عيوننا كلما قرأنا عن الطيارات الحربية وفعلها الذريع بالامم الشرقية التي لا طيارات حربية عندها تدفع بها عن نفسها وتحارب خصومها. فهل يحتمل ان يقضي الاوربيون بطياراتهم على سائر امم الارض التي لا طيارات حربية عندها حتى لا يبقى لهم منازع او يستعملها بعضهم في التنكيل بالبعض الآخر ؟ او ليس في الامكان ان تهتم امم الشرق بصنع الطيارات وتمرين ابنائها على استعمالها فتصير الحرب بينها و بين الاوربيين سجالاً . اما بلاد المكسيك فالادلة كثيرة على ما كانت فيه من العمران الراقي الذي قال الفيلسوف هربرت سبنسر انهُ كان ارقى من عمران اسبانيا . ومن ادلة عمرانها الجنائن والحدائق والبساتين التي كانت فيها لما اجتاحها الاسبان. وقد اطلعنا الآن على وصف لها منقول عما ذكرهُ كورتس نفسهُ والاسبانيون الذين كانوا في حملته او جاؤوا بلاد المكسيك بعده وعما ذكرهُ المؤرخون الوطنيون الذين كانوا في ذلك العهد فاقتطفنا منهُ ما يلي

قال كورتس في كتاب بعث به الى كارلس الخامس ملك اسبانيا واصفاً ازتابلابا Iztapalapa وهو بلد على سبعة اميال من مدينة مكسكو العاصمة ان لحاكم هذا البلد بيوتاً جديدة لم تتم ولكنها مثل احسن بيوت اسبانيا سعةً وعتاداً وكل ما فيها من حجر وخشب غاية في المتانة والاتقان وفي كل منها طبقتان سفلى وعليا وحولها حدائق غناء كثيرة الاشجار والازهار العطرية وبرك للسباحة في كل بركة درج ينزل به الى قاعها. وللحاكم ايضاً بستان كبير يشرف عليه مدرَّج كثير المماشي والغرف الجميلة وفي وسط البستان بركة مربعة جوانبها مبنية بناءً جميلاً وحولها ممشىً مرصوف بالاجر ولسعته يمشي عليه اربعة رجال الواحد الى جانب الآخر طول كل جانب منه ٤٠٠ خطوة وبين هذه البركة وجدار البستان شعريات من القصب وراءها انواع كثيرة من الاشجار والنباتات العطرية وفي البركة كثير من السمك وطيور الماء من انواع مختلفة

وكتب برنال دياز الذي رافق كورتس من ازتابلابا هذه يقول ان بستانها من اعجب ما رأيت مشيت فيه فلم اشبع من رؤية جمال اشجاره واستنشاق اريج ازهاره. وهناك مماشٍ جوانبها منطاة بورود هذه البلاد وغيرها من ذوات الازهار والاثمار. وبركة ماء عذب. وهناك شيء حري بالذكر وهو ان القوارب الكبيرة تستطيع ان تصل الى حديقة الازهار من البحيرة بمدخل بنيت جوانبهُ بالحجارة وطليت ببلاط صقيل وزوّقت تزويقاً. واكرر القول انهُ ليس في المسكونة كلها بلاد تستحق ان تقابل بهذه البلاد

والظاهر ان صور تلك الجنائن كانت مرتسمة في ذهن دياز لما كتب بعد ثلاثين سنة ان كل ما رآهُ هناك كأنهُ من تخيلات الشعراء لانهُ رأى ما لم تره عين ولا سمعت به اذن في مكان آخر

ثم ان الدكتور مرفنس ده سالازار العلامة المشهور كتب تاريخ المكسيك سنة ١٥٦٥ بانياً اخبارهُ على اوثق المصادر فقال عن منتزه ملكها الذي تغلب كورتس عليه ما ترجمتهُ

«كان لذلك الملك منتزهات كثيرة وحدائق كبيرة فيها ترع لريها ولم يكن فيها الاَّ الازهار والرياحين الطبية او العطرية والورود الوطنية والاشجار ذوات الازهار العطرية على اختلاف انواعها وقد امر اطباءهُ ان يجمعوا فعل النباتات الطبية ويستعملوا النافع منها في معالجة اهل بلاطه. وكل الذين يزورون هذه الجنائن يسرون بما يرون فيها من الازهار والورود ويستنشقون اريجها عن بُعد ولا سيما في الصباح والمساء. ومما يستحق الرؤية هناك

الاشكال البشرية الكبيرة التي صنعت من اوراق الاشجار وازهارها والمقاعد والمعابد وغيرها من المباني التي زينت بها تلك الحدائق ولم يسمح منتزوما بغرس الخضراوات والاشجار المثمرة في هذه الحدائق قائلا انهُ لا يليق بالملوك ان يزرعوا في حدائقهم ما يهتم بزرعهِ الزراع والتجار . وله بساتين تزرع فيها الخضراوات والاثمار ولكنها بعيدة عن هذا المكان وهو قلما يزورها

« ولمنتزوما في ضواحي مدينة مكسكو بيوت في حراج واسعة كثيرة الاشجار تكتنفها ترع من الماء حتى لا تهرب حيوانات الصيد منها . وفي هذه الحراج انهار وعيون وحياض كثيرة السمك وحمًى للارانب وصخور شاهقة مسارح للغزلان والايائل والارانب والثعالب والذئاب التي يُكثر اشراف المكسيك من صيدها

ووصف مرفتس ده سلازار صيداً رآه هو وراقبهُ ملك المكسيك وهو جالس في محفة محمولة على اكتاف رجالهِ فقد سير بهِ في هذه الخفة من قصرهِ الصيفي الذي في اسفل اكمة شبلتبك المكتنفة بالاشجار من سرو البطائح وصعد بهِ الحاملون على درج الى اعلى الاكمة مارين بصورهِ وصور اسلافهِ المنقوشة في الصخور الى ان بلغوا رأس الاكمة ومن هناك يشرف على منظر لا اجمل منهُ منظر وادي المكسيك ببحيراتهِ والجبال البركانية وراءهُ وقد غطى الثلج رؤوسها

وذكر سلازار سنة ١٥٥٤ ان منتزوما غرس في رأس هذه الاكمة اشجاراً جميلة المنظر فصيّرهُ جنة وغرس الاشجار ايضاً حول الطريق اللولبي الموصل اليهِ كأنهُ بستاني المكسيك عرفوا بالاختبار ان الجبال الصخرية اصلح لبعض الاشجار من السهول لانها تحفظ منها للرطوبة والحرارة

وفعل صاحب تكسكوكو وصاحب ترسكان كما فعل منتزوما فغرسا الجنائن على رؤوس الآكام لكي يشرفا منها على ما حولها من البلاد مما يدل على انهما كانا مغرمين بحب الطبيعة في كل مظاهرها . وكان منتزوما رئيساً دينياً كما هو رئيس سياسي فكان عليهِ ان ينهض نصف الليل ويرقب نجم القطب ودوران مجاميع النجوم حولهُ ويرقب ايضاً الثريا وغيرها من مجاميع النجوم البعيدة عن نجم القطب . والظاهر ان اهل المكسيك عرفوا الكواكب السيارة ولاسيما الزهرة فكان كهنتهم يرصدونها من اعالي الآكام ويعيّدون لها

ومما يذكر ان منتزوما بعد ما وقع في اسر كورتس كان يستشيحهُ ليزور متنزهاتهِ التي على علوة او غلوتين من عاصمتهِ وقد كتب كورتس الى ملك اسبانيا انهُ كان يسمح

دائماً لمتنزهاً بهذه الزيارات ويرسل معهُ جماعة من اشرافهِ فيولم منتزوما لهم الولائم ويعود مسروراً . وكان كورتس قد اسكنهُ في قصر اقل من قصره رونقاً واتصل بهِ حديقة جميلة ولهُ شرفات وايوان وواجهتهُ وارضهُ من حجر اليشب

ويُعلَم ايضاً ان الازهار كانت تزرع حول الهياكل وفي بيوت حاشية الملك واغنياء السكان حتى في الطبقات العليا من بيوتهم وكان لمنتزوما متنزه آخر في اكمة بنون الصخرية الى الشمال من العاصمة حيث توجد عين حارَّة الماء

واغرب بساتين منتزوما بستان الى الجنوب من وادي المكسيك ورثهُ من سلفهِ منتزوما الاكبر فانهُ يؤخذ من تواريخ المؤرخين الوطنيين انهُ لما رقي منتزوما الاكبر الى سدة الملك سنة ١٤٥٠ ذكَّرهُ اخوهُ ببستان اسلافهم هذا حيث توجد صخور عليها صور اسلافهم وعيون وحدائق واشجار مزهرة واشجار مثمرة فبعث برئيس رقبائهِ لكي يرى البستان ويصلح عيونهُ وترعهُ وحياضهُ وكل ما يلزم لريهِ ويبعث يرسل الى صاحب كتلا كتلا في السواحل الجنوبية ليرسل اليهِ من اشجار الثانلاً والكاكو والمغنوليا وغيرها من النباتات الثمينة وطلب ان يرسل معها بستانيين وطنيين حتى يزرعوها في الفصل الصالح لزرعها ويخدموها الخدمة اللازمة لها فلما وصلت رسالتهُ الى صاحب كُتْلا كتلا امر ان تقتلع الاشجار المطلوبة بجذورها والتراب الذي حولها وتلف لفًّا محكماً بملآت منسوجة وترسل الى المكسيك

ويلي ذلك وصف حفلة دينية قام بها هؤلاء البستانيون توسلاً الى الله لكي ينبت كل ما عزموا على زرعهِ . ثم زرعوهُ واعتنوا بهِ ثلاث سنوات الى ان ازهر واثمر وقالوا انهُ جاد هناك اكثر مما يجود في وطنهِ الاصلي. ثم رفع منتزوما يديهِ الى السماء شاكراً الله كل المخلوقات على مراحمهِ ويكي هو واخوتهُ فرحاً لما انعم بهِ عليهم اله السماء والنهار والليل فمكنهم من ان يخلفوا الى ذريتهم وشعب المكسيك وكل سكان البلاد اشجاراً ثمينة لم تكن عندهم من قبل

وعن هذا البستان كتب كورتس الى الملك كارلس الخامس في ١٥ مايو سنة ١٥٢٢ يقول انهُ اجمل ما رأى من البساتين وابهجها واوسعها فان محيطهُ غلوتان (ستة اميال) تجوي فيهِ ترعة ماء من اولهِ الى آخرهِ وفيهِ ما لا يحصى من الاشجار المثمرة المختلفة الانواع ومن الازهار والرياحين العطرية . وانهُ لما يملأ العين سروراً والقلب بهجة ان ترى العظمة الفائقة ممزوجة بالجمال الرائع

وقال برنال دياز في وصف هذا البستان لما ذهب في رحلة كورتس الثانية « ذهبنا الى هوا كتبك حيث لمتنزه وهو اجمل ما رأيت في حياتي ولما مشى فيه كورتس والدريت أعجبا به اي اعجاب وقالا انهما لم يريا في اسبانيا بستاناً اجمل منهُ »

ولا يخفى ان بلاداً تعنى ببنائها وبساتينها وحدائقها هذه العناية كلهُ لا بد من ان تكون على جانب كبير من الحضارة ومن العلم ايضاً وهذا هو الواقع فانهُ كان في المكسيك ولاية لقيت اثينا اميركا لانها كانت مقر العلم ونشأ فيها اكبر فيلسوف من فلاسفة المكسيك الاقدمين ولولا صعوبة التلفظ باسمهِ كما تلفظهُ الينا الاسبان لوجد مقروناً باسم سقراط وارسطوطاليس وكنفوشيوس وقد كان ملكاً وشاعراً وفيلسوفاً . ولد سنة ١٤٠٣ وتوفي وعمرهُ ٧١ سنة بعد ان حكم خمسين سنة وشيد حكومة منظمة وسنَّ لها قوانين عادلة ودرس طبائع النباتات والحيوانات وما لم يستطع جلبهُ حيًّا الى بلاده امر بتصويره ورسم صوره على جدران قصره بالوانها الطبيعية وربما وصفنا اعمال هذا الملك وترجمنا بعض اشعاره في فرصة أخرى

ومما ينسب الى اهل المكسيك الاقدمين انهم لما جاؤا البلاد واظهروا براعتهم في الزراعة طلب منهم احد ملوكها الاقدمين ان يأتوهُ بطوف زرعوا فيهِ انواعاً مختلفة من الخضراوات وهو الذي سمي بعدئذٍ بالحديقة الطافية فأسقط في يدهم لانهم لم يعلموا كيف يفعلون لكن احدهم حلم ان الهةُ اوحى اليهِ ليلاً كيف يفعل ذلك فصنعوا طوفاً او رمثاً ووضعوا عليهِ نباتات بجذورها واتربتها وجاؤوا بهِ على ماء النهر الى الملك فسُرَّ بهم وامرهم ان يأتوه بطوف آخر وعليهِ نباتات نامية وطيور حاضنة بيضها ويجب ان يصلوا بهِ وقتما تخرج الفراخ من البيض فاسقط في يدهم ثانية لكن الههم اوحى اليهم كيف يفعلون ففعلوا وصار ذلك جزية يأتون بها كل سنة مدة خمسين سنة الى ان قوى شأنهم وخلعوا هذا النير عن اعناقهم

ولقد كان في جانب كبير من اميركا اقوام لا يقل عمرانهم عن عمران الذين اجتاحوا بلادهم لانهم في الراجح من سلالة الصينيين والكوريين وغيرهم من سكان الجانب الشمالي الشرقي من آسيا الذين سبقوا غيرهم في الحضارة ولولا جشع الاوروبيين ولولا الاسلحة النارية التي جاؤوهم بها لما تغلبوا عليهم وكادوا يقرضونهم